



إذا كان الناس يتناصرون فيما بينهم من أجل دين باطل أو دنيا زائفة، فإن المؤمنين يتناصرون فيما بينهم بأعظم عقد وعهد بينهم ألا وهو الإيمان بالله وحده، والاستسلام لدینه الحق، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبه: 71] قال البغوي: «فَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ يَأْمُرُونَ بِعْضًا} في الدِّينِ وَاتَّفَاقَ الْكَلِمَةُ وَالْعَوْنَ وَالنُّصْرَةُ»[1].

ف بالإيمان يثمر الولاء الذي يقتضي المحبة والنصرة، حتى يصبح المؤمنون كالبنيان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبكَ بين أصابعه[2].

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه اللحمة الإيمانية بقوله: «مَثُلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاوُطِهِمْ: مُثُلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمْيِ»[3].

ومثل ذلك عقد الإسلام كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ»، وَقَوْلُهُ: «لَا يُسْلِمُهُ أَيُّ لَا يُتْرَكُهُ مَعَ مَا يُوذِيهِ، بِلَ يَنْصُرُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ»[4]. ومن هنا فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم النصرة للمسلم من كل وجه وبكل سبييل، وذلك عندما قال: «اَنْصُرُ اَخَاكَ ظالماً او مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله انصرُه إذا كان مظلوماً، أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظالماً: كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: تحجزُهُ أو تمنعُهُ عن الظلم، فإن ذلك نصرُه»[5].

وذلك أن الناس في الجاهلية كانوا ينصر بعضهم بعضاً في الحق والباطل، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : قال: «اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادي المهاجر - أو المهاجرين - : يا لِلْمُهَاجِرِينَ، ونادي الأنصاري: يا لِلْأَنْصَارِ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذا؟ أبدعواي الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ قالوا: لا، يا رسول الله إلا أن غلامين اقتلنا، فكسع أحدهما الآخر، فقال: لا بأس، ولَيُنْصُرُ الرَّجُلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فَلَيُنْهِهُ، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره».

وعندما تمنع أخاك من الظلم فإن فيه نصراً له من جهتين:

الأولى: أنه نصر له على هواه ونفعه بهذا المنع [6].

الثانية: أن الظلم سيؤدي به إلى القصاص منه فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصرة له [7].

وتتأكد النصرة للمسلمين إذا كانت من أجل الدين ورد الفتنة عنهم، كما قال تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصِرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ الْنَّصْرُ} [الأنفال: 72].

وال المسلم يقوم بذلك لوجه الله، يرجو رحمة الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَةِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسْرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَرَّ مُسْلِمًا سَرَّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنَى الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنَى أَخِيهِ» [8].

نصرة علماء السلف للدين وأهله:

لقد قام علماء السلف بواجبهم في الدفاع عن الدين وأهله وخاصة في أيام الفتن والمحن، فإذا صال أهل الضلال بکفرهم وبدعهم، صدوهم بالآيات البينات والحجج الواضحات بأسنتهم وأقلامهم، وإذا قامت سوق الجهاد رأيت الكثير منهم ينغمرون في الصدوف مجاهدين ولا يكون مع الخوالف والقعدة.

كانوا قد طهروا أنفسهم من خلق الخضوع للحكام والأغنياء، وكانت عفتهم هي رأس ما لهم، فلذلك كانوا يصدعون بالحق لا يخافون في الله لومة لائم، لأن الله قد أخذ عليهم ميثاق البيان وعدم الكتمان كما قال تعالى: {وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَأَءَ ظُهُورَهُمْ وَاشْتَرَوْهُ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِسْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: 187]، وقال أيضاً: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْأَعْنُونُ} [البرة: 159].

لقد كانوا ملوكاً على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرؤنهم على باطل ولا منكر، ولا يسكنون لهم على مخالفة صريحة للدين، ولا يتتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسطخ الله.

نصرة العلماء للقضية السورية:

لقد انقسم العلماء والدعاة وطلبة العلم بالنسبة إلى القضية السورية إلى ناطقين وساكتين، فالناطقون إما بحق وإما بباطل، والساكتون إما لخوف وإما لتخاذل.

فأما الناطقون بالحق: فهم الذين دافعوا عن الشعب المظلوم ضد النظام الظالم، لقد أفرزتهم ما فعله النظام المجرم من قتل وتعذيب وخطف واغتصاب، فصاحوا في وجه الظلم بأقلامهم وبأسنتهم، بخطبهم ومحاضراتهم وفتاويهم ومقالاتهم ولقاءاتهم، مبينين عقيدة النظام الفاسدة، داعين المسلمين للوقوف مع الشعب السوري بكل ما يقدرون، داعين الشعب للصبر والثبات، قائلين لهم: إن النصر لآت، وإن تنصروا الله ينصركم.

وكان للبيانات والفتاوي الصادرة عن الروابط والاتحادات الإسلامية أكبر الأثر، لأنها جهد جماعي تحوي توقيعات كثير من أهل العلم، كرابطة علماء المسلمين، ورابطة أهل السنة، والاتحاد العالمي، والحملة العالمية لمقاومة العدوان وغیرها.

وأما الناطقون بالباطل فقسماً:

قسم وقف مع الظالم ضد المظلوم، ومع المجرم ضد الضحية، وهؤلاء هم علماء السوء الذين زينوا للمجرم إجرامه ووصفوا الثوار بالعملة والإرهاب والإجرام، واتهموهم بتنفيذ مخطط كوني للنيل من دولة المقاومة والممانعة.

هؤلاء علماء وليسوا بعلماء، ضييعوا الأمانة واتبعوا أهواهم الذي أرداهم، وصدق فيهم قول ابن حزم - رحمه الله - الذي قال في أمثالهم: «ولا يغرنك الفساق والمتسببون إلى الفقه، الالبسون جلد الضأن على قلوب السباع، المُزَيَّنون لأهل الشرِّ شرهم، الناصرون لهم على فسقهم» [9].

إنهم نبيحة النظام الذين فاقوا الشبيحة في إجرامهم، لقد فاقت نونهم شينهم وشينهم؛ لأن الشبيحة لم يطلبوا بالدين الدنيا، ولم يثيروا الفتنة بالفتيا.

صدق من وصفهم بالنبيحة، ولقد ضرب الله مثلاً لعلماء السوء مشبهاً لهم بالكلاب قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً الَّذِي آتَيْنَاهُ أَيَّا تَنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعَنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَتَّلَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرْكُهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْفَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ} [الأعراف: 175 - 177].

يقول مصطفى صادق الرافعي في «وحي القلم 3/44»: أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء، وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؛ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور؛ يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير! وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها؛ فيسهل عليه أن يتأنى ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويختفي؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالة يسأله ماذا يفعل وماذا يقول؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمـة، كعالم السوء هذا الذي لو نطقـت أفعالـه لقالـت له بـلسـانـه: هـم يعطـونـي الدـراـهمـ وـالـدـنـانـيرـ فـأـيـنـ درـاهـمـكـ أـنـتـ وـدـنـانـيرـكـ؟».

والقسم الثاني ممن نطق بالباطل الذي قرأ الواقع خطأ، فأخطأ مرة أخرى عندما حكم عليه بالشرع، وقال: إنـها فـتنـ يـجبـ اـجـتـابـهـاـ، فالـزـمـ بـيـتكـ وـابـكـ عـلـىـ خـطـيـئـكـ، وـكـنـ كـالـسـلـفـ فـيـ اـجـتـابـ الـفـتـنـ، ثـمـ إـنـ هـذـهـ طـرـيـقـةـ فـيـ التـغـيـرـ مـبـدـعـةـ وـقـدـ اـتـفـقـ عـلـمـائـنـاـ عـلـىـ تـحـرـيمـ الـمـظـاهـرـاتـ، فـهـؤـلـاءـ بـهـذـاـ الـكـلـامـ خـذـلـواـ إـخـوـانـهـمـ وـلـمـ يـقـرـؤـواـ الـوـاقـعـ قـرـاءـةـ صـحـيـحةـ، وـالـرـدـ عـلـيـهـمـ لـيـسـ هـنـاـ مـوـضـعـهـ.

وأما الساكتون لخوف فالله حسيبهم، والعالم الجبان لا مكان له بينهم لأنـهـ عـضـوـ أـشـلـ. وـأـمـاـ السـاكـتـونـ لـخـازـلـ فـهـؤـلـاءـ قـيـدـتـهـمـ الأـطـمـاعـ، فـشـلـتـ أـلـسـنـهـمـ، وـمـاـ أـصـدـقـ كـلـامـ الغـزـاليـ – رـحـمـهـ اللـهـ – فـيـ أـمـثـالـ هـؤـلـاءـ عـنـدـمـاـ قـالـ: «أـمـاـ الـآنـ فـقـدـ قـيـدـتـ الأـطـمـاعـ أـلـسـنـ الـعـلـمـاءـ فـسـكـتـوـاـ، وـإـنـ تـكـلـمـوـاـ لـمـ تـسـاعـدـ أـقـوـالـهـمـ أـحـوـالـهـمـ فـلـمـ يـنـجـحـوـاـ، وـلـوـ صـدـقـوـاـ حـقـ الـعـلـمـ لـأـفـلـحـوـاـ، فـفـسـادـ الرـعـاـيـاـ بـفـسـادـ الـمـلـوـكـ، وـفـسـادـ الـمـلـوـكـ بـفـسـادـ الـعـلـمـاءـ، وـفـسـادـ الـعـلـمـاءـ بـاستـيـلـاءـ حـبـ الـجـاهـ وـالـمـالـ، وـمـنـ اـسـتـولـىـ عـلـيـهـ حـبـ الدـنـيـاـ لـمـ يـقـدـرـ عـلـىـ الحـسـبـةـ عـلـىـ الـأـرـاذـلـ فـكـيـفـ عـلـىـ الـمـلـوـكـ وـالـأـكـابـرـ»[10].

أـيـهـاـ السـاكـتـونـ لـقـدـ تـكـلـمـ السـاسـةـ وـالـفـنـانـونـ وـالـلـاعـبـونـ وـالـكـفـارـ وـالـمـؤـمـنـونـ فـمـتـيـ تـكـلـمـونـ؟ـ لـوـ كـانـ الـذـيـ يـذـبـحـ فـيـ سـورـيـةـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـكـلـابـ لـكـانـ حـقاـ عـلـيـكـ أـنـ تـنـكـرـوـاـ وـلـكـنـ..ـ يـاـ مـعـشـرـ الـقـرـاءـ يـاـ مـلـحـ الـبـلـدـ ***ـ مـاـ يـصـلـحـ الـمـلـحـ إـذـاـ الـمـلـحـ فـسـدـ

توصيات:

يجب على الأمة أن تأخذ بسبيل الرقي في المعالي من أجل دينها، وتتخذ الوسائل النافعة في صد العدوان عن الدين وأهله، ثم دعوة الناس أجمعين إلى الدين الحق.

وإن للعلماء دوراً كبيراً يحتاج إلى تفعيل كبير، ليكون علمهم نافعاً بصورة أوسع وأثر أعمق، ومن أجل ذلك كانت هذه التوصيات:

السعى إلى توحيد جهود العلماء في مواجهة النوازل وبيان حكم الشرع فيها، والعمل على نشر ذلك عبر وسائل الإعلام. قيام العلماء بدورهم بصورة أشمل وأوسع يساهم في الحيلولة دون انسياق المسلمين وراء القضايا والأحداث التي يصنعنها أعداء الإسلام، ويطرحونها بقوة ويجرون المسلمين إلى المناقشة والجدل حولها بصورة تحجب غيرها من قضايا المسلمين

يجب على العلماء تبصير الناس بحكم الله في أقداره، وبما يجب عليهم من محاسبة أنفسهم والعودة إلى الله بالتوبة النصوح. الصدح بكلمة الحق في وجه كل ظالم وباغ؛ سواءً أكان حاكماً أم محاكوماً حتى يرتد عن ظلمه وكشف حال أهل الباطل، وكشف مخططات الأعداء وتحذير الأمة من الارتماء في أحضانهم.

تصحيح عقيدة المسلمين وسلوكهم، وتجميع الأمة على عقيدة أهل السنة والجماعة، وتحذير الأمة من الشرك والكفر والبدع، وتعليم المسلمين أمور دينهم وتفقيههم.

إحياء روح الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة، وإيقاظها من غفلتها، لتعمل على تغيير واقعها والنهوض به واستشراف مستقبلها، وتنظيم العمل الجهادي وتوجيه المجاهدين في كل مكان.

ينبغي على العالم أن يسعى إلى الاستقلال بمفهومه العام الذي يرتكز على تجريد النية لله عن كل ما سواه، ومن ذلك الحكومات والشعوب، فلا يقدم العالم على رضا الله، رضا أحد كائناً من كان محبأً كان أم مبغضاً، وهو مع ذلك ليس بمعزل عن التواصل مع الحكام والمحكومين، وإنما يدعو الناس أجمعين بدعوة المرسلين ويبتغى لهم رحمة أرحم الراحمين، وهذا لا يتعارض مع المشاركة في أعمال الدولة ومؤسساتها ومؤسسات المجتمع، بل قد يكون واجباً عيناً على بعض العلماء، حتى لا تخلي الدولة من العلماء الريانياين والداعية المهتدية والرجال الصالحين. يجب على العلماء أن يتقدموا لسد الثغرة، وأن يتولوا زمام المبادرة بأنفسهم، وأن يكونوا قريبيين من الناس قبل الفتن وفي أثنائها، وألا ينتظروا أن تأتياهم الفرص وهم قاعدون.

لا بد من الاحتساب من قبل العلماء الراسخين على من يدعون العلم وينتبثون إليه من غير أهله، وتبين حالهم للناس، وعدم ترك المجال لهم ليقودوا الأمة ويتصدّروها، وإن من غشّ الأمة ترك الاحتساب على أولئك المتعاملين. يقول ابن القيم - رحمة الله - عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان شيئاً - رحمة الله - شديد الإنكار على هؤلاء، فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجعلتَ محتسباً على الفتوى؟! فقلت له: أيكون على الخبازين والطباخين محتسب ولا يكون على الفتوى محتسباً؟!!» [11].

إن أهل العلم بحاجة ماسة إلى أن يمدوا بينهم جسور المحبة والألفة والاجتماع والإخوة والمشورة، فإن كثيراً من الخير، وحظاً وافراً من الإصلاح يتحقق بذلك. ويتأكد هذا التواصل والتواصي في النوازل الكبار والأزمات الجسمانية.

يجب تعزيز دور المؤسسات الخيرية، والهيئات والمنظمات الإسلامية الموثوقة، وينبغي على أهل العلم وطلبه التعاون معها مما يحقق الخير للأمة.

السعي إلى إيجاد جمعيات لأهل العلم وطلبتها في كل بلد، ثم السعي لإيجاد تكتل عالمي يجمع علماء أهل السنة والجماعة، لتوحيد الخطاب الديني للأمة وخاصة أيام النوازل.

تفعيل العمل الجماعي في جميع نواحي الحياة، وتضييق دائرة التحزب والتعصب للأشخاص والجماعات، فلا بد من تضافر الجهود، وترافق الصنوف، ونبذ الاعتداد بالنفس، والاستبداد بالرأي، وتضخيم الذات.

تفعيل المراجعات الجادة في الجماعات الإسلامية وتوثيق الارتباط بينها وبين أهل العلم.

إعادة قراءة التاريخ الإسلامي والاستفادة منه، وخاصة الفتن والمحن التي مرت بال المسلمين لمعرفة أسبابها ونتائجها، وتلمس الوسائل الناجعة للتخلص منها.

الحرص على الاجتماع والائتلاف والبعد عن التفرق والاختلاف، فإن جزءاً كبيراً مما أصاب الأمة ويسببها من الفتن والنكسات؛ إنما هو بسبب ما جرى في الأمة من التنازع والفرقة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا التفريق الذي حصل من علماء الأمة ومشايخها، وأمرائها وكبارها؛ هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها» [12].

إشاعة الشورى بين المسلمين وخاصة بين أهل العلم، فلقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أغنى الناس عن الشورى ومع ذلك قال الله له: {وَشَارِزُهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: 951] ولقد بادر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأخذ بذلك حتى قال أبو هريرة - رضي الله عنه - كما في الترمذى: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»، فواجب على ورثته أن يتأنسوها به. قال بعض البلغاء: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاة، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زل، والعقل الفرد ربما ضل. العمل على قيام حملات توعية علمية واسعة لتبصير الناس بطريقة التعامل الصحيح مع النصوص الشرعية، والاستدلال بها استدلالاً صحيحاً حتى لا توضع في غير موضعها، وتتصدر عليها فتاوى قد تكون غير صحيحة بسبب انحراف موضع الاستدلال بالنص.

العمل الجماعي المؤسسي فإن معالجة ما تمر به الأمة من أخطار، ومواجهة ما يعصف بها من أحداث أمر يفوق جهود الأشخاص، ويتجاوز طاقات الأفراد مهما كانت المعنية عقولهم ورسوخ علومهم، وقد كان سلفنا يقولون في بعض ما يرد عليهم من مسائل العلم: هذه مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لجمع لها أهل بدر، فإذا كان هذا هديهم في المسائل الشخصية الفردية، فكيف بالنوازل المصيرية التي يتاثر بها واقع الأمة.

[1] تفسير البغوي - طيبة / 472.

[2] أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه.

[3] رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهم.

[4] كشف المشكل من حديث الصحيحين / 484.

[5] أخرجه البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه.

[6] كشف المشكل من حديث الصحيحين / 278.

[7] شرح صحيح البخاري لابن بطال / 6572.

[8] أخرجه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

[9] رسائل ابن حزم 3/173.

[10] إحياء علوم الدين 42/1.

[11] إعلام الموقعين عن رب العالمين 4/167.

[12] مجموع الفتاوى 3/421.

المصدر: مجلة البيان

المصادر: